

في الأدب المقارن

موضوعات الأدب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ غفرى أبو السعود

يعبر الأدب عن شتى خواج النفس وخواطر الذهن . ويصف تأثير النفس بمختلف صور الحياة وظواهر الكون وصروف الدهر ، وكلها أمور لا يحد مداها ولا تحصى مذاهبها ، ومن ثم لاتحد ولا تحصى أشتات الموضوعات التي يعالجها أدب أمة من الأمم في مختلف عصوره ، فأدب الأمة الحى يشمل أطراف حياتها المترامية ، بما يوحى به التدين والورع إلى ما يمليه التبذل والاستهتار ، وما يمليه الحزن والألم إلى ما توحى به الغبطة والسرور ، وما يدعو إليه التفكير والتأمل الرزين أو يحمل عليه التفكك والتندر ، ومن كل ما يبعث إعجاب الإنسان وروبه وخشوعه أو يثير احتقاره أو نفوره ، ومن كل ما يوقظ حب الاستطلاع والدرس والمعرفة المركب في طبع الإنسان ، ويمتد مجال الأدب حتى يختلط بشتى فروع العلم في بعض أطرافها

على أن موضوعات الأدب وإن تعذر استقصاؤها يتجمع أكبرها وأخطرها شأنًا حول مواضيع رئيسية يكثر طرقها وبعزى إلى واحد منها كل أثر من آثار رجال الأدب ، كالنسيب والرياء مثلا ؛ كما أن أدبا قد يختلف عن أدب في فن يحتق به ولا يكاد يوجد في غيره ، أو فنون يدمن طرقها دون غيرها ، بل يختلف الأدب الواحد في عصر من عصوره عنه في عصر آخر من حيث فنون القول التي يحتق بها ويقدمها على غيرها . فالبينة والعصر يتركان أثرهما في فنون الأدب التي تحظى بالرواج والاقبال ؛ ففي عصور الجهاد والصراع مثلا تسود أشعار الحماسة وتمجيد الحى والأبطال ؛ وفي عصور النزاع بين المادية والترف وبين الدين والتقاليد ، تكثر آثار المجون والزيف من جهة ، وآثار الوعظ والزهد من جهة أخرى ؛ وعصور البداهة تقدم آثارها بالسذاجة والعاطفة المتدفقة ، وعصور الثقافة تمتلئ آدابها بآثار التأمل والأزمات النفسية ؛ وكلما ارتقى المجتمع وصدق أدبه في التعبير عن حياته كثرت فنونه التي بطرقها ، وطال طرقه للفنون الرئيسية التي تمت إلى النفس الحية والفكر المذهب بأوثق الأسباب ، واختلف أدباؤه كل منهم يخص فنا أو فنونا منها باحتفائه . أما في عصور التدهور

والركود فتضيق دائرة تلك الفنون ويتعلق كثير منها بالسطحي والتقليدى من الأقوال ، ويتفق أكثر الأدباء في طريقة تناول تلك الفنون المحصورة والأدبان العربي والانجليزي قد تناولا أشتاتا من فنون القول ، وعبراعما لا يحصى من أفكار الإنسان ومشاعره ، وانفقا في كثير من ذلك لاتفاق الطبيعة الإنسانية في كل مكان ، واختلفا في مدى الاحتفال ببعض الفنون والأعراض عن بعضها لاختلاف بيئات الإنسان من إقليم إلى آخر ، وظهرت في كل منهما على تعاقب العصور مواضيع لم تكن معروفة من قبل ، وحظيت مواضيع دون أخرى بالحفاوة والصدارة ؛ فالشعر الحامسى كان في العصر الجاهلى هو الفن الرئيسى ، لما كانت تتطلبه الحياة القبلية من التعبير عن صفات القوة والغلب ، ثم حلت الخطابة السياسية في صدر الاسلام محل الشعر ، ثم احتل الصدرة في العصر الأموى النسيب والمهاجاة ، وهلم جرا . وفي الأدب الانجليزي بلغت الخطابة الدينية الوعظية شأوها في عهد المظهرين ، وملكت الطبيعة جل اهتمام الشعراء في العصر الرومانسى ، وقاز التحليل القصصى النفسى والاجتماعى بالصدرة في العصر الحديث ولعل النسيب أحظى فنون الأدب باحتفال الأدباء في شتى الأمم ، لما يصدر عنه من عواطف وغزائر متأصلة في النفس الإنسانية على اختلاف البيئات . وقد بلغ من احتفاء العرب به أنهم لم يقتصروا على الحديث عنه في مكانه ، بل استهلوا به منذ عهد الجاهلية قصيدهم . ولم تخل من حديث الحب أكثر روايات شكسبير في القديم وقصص هاردي في العصر الحديث . فوسع الأدبان شتى الأوصاف للحالات الحب الراضية وأطواره الغاضبة . وإلى الحب يرجع الفضل في كثير من الآثار الأدبية وفي تكوين نفوس كثير من الأدباء ، وحول حديثه يدور جانب عظيم من كل أدب ؛ وقد غلا قوم فدوه مصدر كل أدب وفن

والرياء فن معدود من فنون الأدب في العربية والانجليزية ، يمتاز كثير من آثاره بالصدق وحرارة العاطفة وعمق التأمل . وذلك لأن حلول الموت ينقض الشمل وينقص المسرة ويذهب بالألف ، فيبعث في نفس الأديب ثورة ، ويدفعها إلى مراجعة التأمل في الحياة ، ويستخرج خير ما في النفس من صفات الوفاء والمودة وعذب الذكريات وخلجات الحنين . ومن غرر المراثى في العربية رثاء مهلهل لأخيه ، ودالية المعرى ورثاء البحترى للتوكل ورثاء ابن الرومى لأوسط صيته ورثاء الهامى لولده . ومن روائع المراثى في الانجليزية مراثية ملتون المسماة ليسيداس ومراثية شلى المسماة ادوينيس ومراثية تيسون المسماة الذكرى . وقد نظم كل منهم قصيدته في رثاء صديق له رفيق لصباه مات معتبطا . ومن بدائع المراثى الانجليزية أيضا خطبة مارك النطون

على جسد قيصر في رواية شكسبير الدائمة الصيت ، ومرئية جرای التي نظمها في مقبرة قرية

والدين والوعظ فن يشترك فيه الأدبان ، يتمثل في العربية في خطب الرسول الكريم وكثير من خلفائه ، وكثير من أشعار أبي العتاهية وأبي نواس وابن عبد القدوس وابن الفارض وأصحاب المدايح النبوية ؛ وفي الإنجليزية في كثير من شعر هلتون ودن ونثر هو كرونيان ونيومان ، وأكثر ما كتب من ذلك في الإنجليزية إنما كان بأقلام رجال الدين المنتمين إلى الكنيسة . أما العربية حيث لم تكن للدين هيئة رسمية ذات نفوذ كالكنيسة فخام أدب الدين متفرقا يستوى في معالجته رجال الدين المنفتمون فيه ورجال الدنيا غير المتوفرين عليه . ومن أنبع رجال الدين في الأدب العربي الإمام الشافعي الذي يمتاز شعره برصانة ونقاء رائعين ، ومن آثاره قوله :

ثلاث من مهلكة الانام وداعية الصحيح إلى السقام :
دوام مدامة ودوام وطم وإدخال الطعام على الطعام
وقوله :

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع ذل الجهل طول حياته
حياة الفتى والله بالعلم والتقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته
والميل إلى الصداقة طبع في الإنسان لا يكاد يقل عن الحب تمكنا
وقوة ، فما يزال الإنسان في حنين إلى الأليف الروحي الذي يبادل له
النهم والشعور ، ويقاسمه الحزن والسرور ؛ ومن ثم تشغل الرسائل
والقصائد الإخترائية في اللادين العربي والإنجليزي مكانا معدودا ،
بين تخاطب في شتى الأمور وبين تعارف وتقاطع ، وبين تعاتب
وتقريع . ومن آثار الصداقة في الإنجليزية كثير من مقطوعات
شكسبير ، وما كان بين بوب وكوبر وليدى متاجيو وبعض معاصريهم
من تراسل ، وما كان بين جونسون وجولدسميث وبوزويل وجماعتهم
من أحاديث دونها الأخير في كتابه عن الأول ، وما كان بين جرای
وشلي ويرون وكثيرين غيرهم وبين أصدقائهم في الوطن من مراسلات ،
حين كان أولئك الشعراء يطوفون في ربوع أوروبا . وللجاحظ والبدیع
والصافي وابن العميد رسائل إلى أصدقائهم بارعة تعد في صميم الأدب
العربي . ولم تكن رسالة الغفران إلا رسالة بين صديقين . ومن
قصائد التعاتب المشهورة لامية معن بن أرس التي مطلعها :

لعمرك ما أدري وإني لا وجل على أينما تعدو المنية أول
ومزية ابن الرومي الطويلة التي مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء ؟ أين ما كان بيننا من صفاء ؟
وقد الأدب موضوع مهم من مواضع الأدب ، تلذ قرامته كما

تلذ قراءة آثار الأدب الأخرى ، لما يحورى من عام النظرات وخاصها
في مخلفات الأدياء وعصور الأدب . وما يزيد أكثر كتب الأدب
في العربية ككتاب الصنائع وكتاب الوساطة إمتاعاً حفو لها بالكثير
من بدائع المختارات والمقتبسات . وفي الإنجليزية يحتق بعض القاد
أمثال ما كولى ومانيو أرنولد وإديسون بأسلوبهم الأدبي في تقديم
لآثار غيرهم ، حتى ترى آثارهم النقدية مضاهية لما ينقدونه لذة وإمتاعاً .
ويتميز بنقد الأدب في الإنجليزية نقد الفنون الجيلة عامة ، والإشارة
إلى القواعد التي تشملها هي والأدب ؛ ففي مقاله عن بيرون مثلا -
يوضح ما كولى آراءه بأمثلة من الفنون الأخرى من موضع إلى آخر .
وأحوال المجتمع وأحداث السياسة ليست بما يمر بالأديب المثقف
دون أن يكرهه ، بل لابد أن يترك ذلك أثره الواضح في أدبه . وقد
كان شعر الجاهليين سجلا موجزا لكبريات أحداثهم ، فلما خضع
العرب للملكية بعد الاسلام كفكت تلك اللوعة كثيرا ؛ وقل نقد
الأنظمة الاجتماعية والسياسة في الأدب والتعليق على الحوادث إلى
حد كبير ، إلا أن يكون في ذلك مجازاة ومظاهرة لأصحاب السلطان .
وقد قتل المنصور ابن المظفر الذي رفع اليه رسالة في شؤون الحكم
وإن عزي مقتله إلى سبب آخر وأحيط بالغموض . إنما أثر السياسة
والحوادث في الأدب بعد الاسلام باد في الرسائل الديوانية التي كان
يتأق الوزراء الكاتبون أمثال سهل بن هرون والقاضي الفاضل
وابن زيدون في كتابتها إلى عمال الأمير وأنصاره وأعدائه والخارجين
عليه ، كما أن في كتابات الجاحظ ومقامات البديع تصورا واضحا
لكثير من أحوال مجتمعهم وأنبائه . ومن أشعار الأحداث السياسية
قصيدة يزيد المهلب في رثاء المترك وقصيدة ابن الرومي في ثورة
الزنج التي منها يقول :

بينما أهلها بأحسن حال إذ رماهم عيدهم باصطلام

صبحهم فكابد الناس منهم طول يوم كأنه ألف عام

وهذا الفن أوسع محيطاً وأحفل بالآثار في الإنجليزية ، حيث
مهدت الحكومة الديمقراطية السيل للنظرات الحرة والنقدات الصادقة .

وكان استقلال الأمة الإنجليزية عن غيرها واعتزالها سواها إلى حد
بعيد داعياً إلى اشتداد الشعور القومي والاحساس بوحدة المجتمع
والاهتمام لشؤونه كأنها شؤون كل فرد الخاصة . وقد قال الامام علي :
كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته . وما أسماه مبدأ إنسانياً ومذهباً
ديمقراطياً وحكمة عمرانية ؛ بيد أنه كان شعار المجتمع الإنجليزي أكثر
منه شعاراً للمجتمع العربي ، ومن ثم كانت لا كثر أدياء الإنجليزية
نظراتهم الإصلاحية الخاصة ، التي تتراوح بين الخطرات العارضة
وبين الرغبة في الانقلاب الكلي ، وظهرت القصة نتيجة هذا الاندماج

الأسلوب المحكم الرصين الذي كان شعاره في الأدب التعبير عما قيل من قبل كثيراً ، ولكن لم يقل أبداً بهذا الأحكام ، ، فسار كثير من أبياته المحكمة الموجزة على الأقلام والأقوال

ومما يتصل بالحكمة في الأدب العربي ويمتاز هذا الأدب به التمدح بحميد الخصال كالجود والشجاعة وحنى الذمار وحسن الجوار وحفظ السر وكظم الغيظ ومدارة السفه ، إلى غير ذلك من الدساتير الخلقية التي كان كثير من أشرف العرب الأدباء يسنونها لأنفسهم ، وامتنادح تلك الصفات في الغير والحث عليها ، وهذا من أنبل مواضع الأدب العربي ، ولحاتم الطائي ومسكين الدارمي والمقنع الكندي والشريف الرضي والإمام الشافعي آثار في ذلك ، تروع برصانة أسلوبها ومثانة أسرها وعظمة خلقها ؛ فلما غلب التقليد على الأدب ، ودخل الشعر في طور التقهقر انقلب مثل هذا التمدح المحبوب الصادق المقرون بالفعال نغماً عاجزاً أجوف ، بآثر وهمية وعزائم مزعومة ، ونها على النجوم ودلا على الزمان ، كقول السري الرفا :

ولأنك عدى يا زمان وإنتى على الرغم منى أن أرى لك سيداً
والغريب أن أحد أولئك الشعراء المتشدقين بالفخر ربما خربت في
القصيدة الواحدة بشكوى سوء الحال وقعود الجدود وخيبة الآمال .
والشكوى موضوع من مواضع الأدب العربي كانت أقرب إلى
متناول أدبائه منها إلى أدباء الإنجليزية ؛ وقد فشت خاصة في آثار
المتأخرين . والأدب العربي من جهة أخرى أحفل بوصف آثار
الترف ومظاهره : من القصور والمحافل ومجالس الشراب وآلات
الطرب ودواعي المجون . وللخمر خاصة منزلة في الأدب العربي
لا نظير لها في الإنجليزية ، وقد حظيت من جزالة أسلوب الاضطلال
وأنى نواس وابن الرومي بما خلد أوصافها وأعلى ذكرها ، وقبلها يرد
ذكر الخمر في الأدب الإنجليزي إلا أظرفاً وتشبهاً بالاغريق المتقدمين
وإشارة إلى باخوس إله الخمر عندهم

وراج في الأدب العربي فنان ليس من صميم الأدب في شيء ، وما زالوا
يرقبان حتى احتلا مكان الصدارة من الأدب ، وموضع الحفاوة من
الأدباء ، وهما المدح والهجاء اللذان استفحل أمرهما من عهد الأمويين
فنازلاً ، حتى استبدت بأجزاء كبيرة من دواوين بشار وأبي نواس
وأبي تمام والمتنبي ، وكادتا يشغلان كل دواوين آخرين غير هؤلاء .
وما كان ارتفاع شأنهما هكذا إلا نتيجة فساد تقاليد قديمة ، كانت
في الجاهلية تقاليد محمودة لا ضير فيها ، ثم استمرت بعد ذهاب
عصرها واندثار يثنها بظهور الإسلام وقيام الدولة المنتهضة المركزية
ففسدت تلك التقاليد وصارت يلاذ على الأدب الصحيح

الاجتماعي تصور المجتمع تصويراً دقيقاً لا يغادر منحنى ولا مذهباً .
ولكن الحياة ليست كلها جداً مرأ ، ولا النفس الانسانية تحتل
الجد المتواصل ، وإنما يميل الانسان بطبعه إلى الترفيه عن نفسه
بالنفسك والنظر إلى الجانب المزلي من الحياة . والأدباء لدقة
إحساسهم ونفاذ نظرهم سريعون إلى ملاحظة مواطن التناقض
ومواضع الفكاهة في أخلاق الناس وأعمالهم ؛ ومن ثم يحفل الأدباء
العربي والإنجليزي بصور عديدة من صور الفكاهة ، تتراوح درجاتها
بين العبث البريء في أبدي شكسبير وجولد سميث واديسون والملاحظ ،
وبين السخر المرير في أبدي سوفت وبوب وابن الرومي والمعرى ،
ويتناول بها الأدباء مناسبتهم ومعاصريهم ويفندون حماقات المجتمع
وهناك مواضع احتقن بها الأدب العربي حفاوة باللغة تفوق
ما ناله في الإنجليزية ، وأولها الحكمة : فأدباء العربية كانوا منذ
الجاهلية يعشقون الحكمة ويحبون نظمها والاستماع إلى أشعارها ، بل
كانوا كما قيل لا يعترفون لشاعر بالفحولة حتى يوفق إلى شيء منها .
وظل الأعشى مزوياً عن مصاف الفحول حتى قال في مدحه سلامة
ذا فائس : والشئ حينما جعلاً ، ، بجمع صدق النظرة إلى إيجاز
اللفظ وهما سمتا الحكمة عند العرب . ولما اطلع العرب على ثقافات
الأمم كان أهم ما احتفوا بنقله من آدابهم الحكمة . ومن كتب الحكمة
مؤلفات ابن المقفع ومقصورة ابن دريد والخطيب المنسوب إلى قس
ابن ساعدة والامام علي ، والجم الغفير من أشعار المتنبي التي سارت
مسير الشمس ؛ وليس من محض الصدفة أن كان أكبر شعراء العربية
وأسيدهم ذكراً حكماً مكثرأ لصوغ الحكم وضرب الأمثال .
وبالحكمة الصادقة البليغة الموجزة كان الأديب العربي يستغنى عن فنون
وأشكال من الأدب ازدهرت في الإنجليزية ، كالقصة والرواية التمثيلية
والملمحة ، فالعبارة التي تتطوى عليها إحدى هذه يجمعها الشاعر العربي
في بيت واحد يلقيه إليك وخلاه ذم

واقباس الحكمة والمثل والاستشهاد بأقوال السلف أقل حدوثاً
في الإنجليزية منه في العربية ، لأن الحكم للموجة التي تغور في الأخيرة
قليلة في الأولى . وكثيراً ما يلجأ المقتبس في الإنجليزية إلى الأديين
الاغريق واللاتين ، وحتى هذا يبطل تدريجاً في العصور الحديثة .
وأكثر أدباء الإنجليزية حظوة لدى المقتبسين والمستشعدين شكسبير ،
وليس ذلك لأنه كان يتمد صوغ الحكمة أو يحرص على التكرار
منها ، بل لأن رواياته من جهة قد أحاطت بشتى أحوال الحياة والنفس
الانسانية ، بحيث يجد فيها كل كاتب شيئاً مقارباً لما هو بصده ،
ولأن مقدرته اللغوية العظيمة من جهة أخرى كانت تهدبه إلى صوغ
أفكاره صياغة موجزة بمتعة ؛ ويليه سيرة أحوال بوب ، زعيم

الأخرى والترفيع عن العامة وثقافتهم المتواضعة ، واحترار الخرافة وأساطير الماضين .

واتخذ الأدب الانجليزي التاريخ الواقعي مادة لموضوعاته : منه اتخذ الإنجليزيون مواضيع بعض رواياتهم ، وفيه جال جيون وسودي وما كولي وكارليل ، يدرسون كبريات الوقائع وعظما الرجال وإليه رجع الشعراء والقصصيون ، وقد صور سكوت في قصصه حوادث التاريخ تصويراً يفوق كتب التاريخ أحياناً دقة ووضوحاً ، ولم يكذب يلتفت إلى التاريخ من أدباء العربية ويتناولوه في أسلوب أدبي - جزل سوى الجاحظ .

فالآدابان العربي والانجليزي قد تناولا مواضيع مشتركة بينهما ، وطرق كل منهما مواضيع لم يحتف بها الآخر . على أن الأدب الانجليزي أغزر موضوعات وأكثر شغلاً بأسباب الحياة ؛ والأدب العربي لم يظل دائماً ترجيحاً لكل عواطف المجتمع العربي ، وكانت روح المحافظة التي سببت عدم تطور أشكاله سبباً في قلة تطور مواضيعه أيضاً ، فأهمل مواضيع شتى تمت إلى الطبع الانساني بأوثق الأسباب وتدخل في حظيرة الأدب أول داخل ، وتناول غيرها لا تمت إلى الفن بسبب ، ومرجع ذلك ما خالطه من نزعة تقليد جامدة ، وما اعتمد عليه من رعاية الأمراء ، على حين كان الأدب الانجليزي دائماً حر النزعة حر الحركة والنمو

فهمى أبو البصير

رحمة

في بلاد العربية السعيدة

تأليف : نزيه مؤيد العظم بك

وصف مسهب لبلاد اليمن وسبأ ومأرب ونصوص المعاهدات التي عقدها الدول مع اليمن يقع في ٤٠ صفحة من القطع الكبير مزدان بالصور وهو الكتاب العربي الوحيد في بابه ويطلب من : -

مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه

بحوار سيدنا الحسين بنصر

ثمان النسخة ٣٠ قرشاً عدا أجرة البريد

كان العرب الجاهليون يحرسون على حسن الأحداث ، ويمدحون بكرم الصفات ، ويناقشون خصوصهم بالشعر ، ويجزون من فعل ذلك عنهم ، وكان ذلك كله وليد بيتهم البدوية ، فلما كان الاسلام والدولة والحضارة لم يعد لمثل ذلك التفاخر والتهاجي موضع ، ولكن الشعراء استبقوا ذلك التقليد طلباً للنوال ، والأمراء قبلوا منهم ذلك الأحياء المتفعل لتقليد غير عصره طلباً للجد الزائف . ومن العسير أن تحصى المساوي التي جررها هذان الفنان من القول على الأدب العربي : مواضيعه ومعانيه وأساليبه

ولم يكن في الانجليزية شيء من هذين الفنين يقاس بما كان في العربية ، وحتى القليل من المدح الذي كان في بعض الفقرات يستفز الأدباء الأباة إلى مثل قول بوب : « فلا عبر عن رأيي في الأمر في كلمة : إن وصف الرجل بأكثر مما نعلم فيه عمل بعيد عن الأمانة إذا قصد من ورائه الروح ، وعمل أخرق إذا لم يقصد ، وكل من نجح في مثل هذا العمل لابد أن يعتقد في قرارة نفسه أنه هو نفسه دجال لأنه فعل ذلك ، وأن عمدوجه أحق لأنه صدق ما قيل فيه .

وعلى حين احتفى شعراء العربية بهذين الفنين الزائفين من فنون القول ، أهملوا إلى حد بعيد فناً هو من صميم الأدب والحياة ، وهو الوصف الطبيعي : فديوان المتنبي الذي يعج بمعاني المدح والمهجاء المخترعة لا يضم إلا أبياتاً معدودة منشورة في التفتي بباهج الطبيعة . أما في الانجليزية فالطبيعة وحى مالا يعد من قصائد بين مقطوعات ومطولات ، ووصفها يتخلل أشات المنظوم والنثر في مختلف الأغراض ، وهي المنظر الخلق لكثير من روايات العصر الانجليزي وملاحم ملتون وسبنسر ومطولات تينسون وقصص هاردي ، بل بلغ من دقة دراسة تينسون إياها أن أصبح شعره يقتبس في كتب الجيولوجيا والجغرافيا أحياناً ، وبلغ من معرفة هاردي بطبيعة الاقليم الذي أجرى فيه حوادث قصصه ، أن كان يخصص الصحائف الطوال لوصف المنظر الواحد في قصصه بدقة العالم لا القصص

وهناك مواضيع أدمت أدباء الانجليزية ورود مناهلها وغزرت آثارها في أدبهم ، فكانت فيه مادة فن وإمتاع وغبطة : كالتحدث عن المغامرات وروائع القصص وعجائب الرحلات ، وجسام حوادث الماضي وعظائم أبطال الأمم ، وتمتع خرافات الأجيال وأغنيات طبقات الشعب وأقاصيصهم ، كل هاتيك وجد فيها أدباء الانجليزية منادح للفن والخيال ومعارض لميول النفس الانسانية وطباعها وسجاياها المرسله ؛ أما الأدب العربي فيمتاز بكفكفة غلواء الخيال والتجاني عن البعيد من الأمكنة والأزمنة والازورار عن الأمم